بسم الله الرحمن الرحيم

دَوْرُ مِصْرَ فِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ 24 رَبِيعٍ الآخِرِ 1444هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ النَّاسَ وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاخْتَارَ مِنْهُمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَخَلَقَ الْأَمَاكِنَ وَاخْتَارَ مِنْهَا الْمَسَاجِدَ، وَخَلَقَ الشُّهُورَ وَاخْتَارَ مِنْهَا رَمَضَانَ، وَخَلَقَ الْأَيَّامَ وَاخْتَارَ مِنْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وَلَقَدْ كَانَ لِمِصْرَ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الِاخْتِيَارِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أُمُورٌ:

الْأَوَّلُ: لَمْ يَذْكُرِ اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ مَدِينَةً بِعَيْنِهَا بِمَدْحٍ غَيْرَ مَكَّةَ وَمِصْرَ. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾. قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: فَلَمَّا تَجَهَّزَ يَعْقُوبُ وَأَوْلَادُهُ وَأَهْلُهُمْ أَجْمَعُونَ، وَارْتَحَلُوا مِنْ بِلَادِهِمْ قَاصِدِينَ الْوُصُولَ إِلَى يُوسُفَ فِي مِصْرَ وَسُكْنَاهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ، وَ ﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، أَيْ: ضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَاخْتَصَّهُمَا بِقُرْبِهِ، وَأَبْدَى لَهُمَا مِنَ الْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالْإِعْظَامِ شَيْئًا عَظِيمًا، وَقَالَ لِجَمِيعِ أَهْلِهِ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾، مِنْ جَمِيعِ الْمَكَارِهِ وَالْمَخَاوِفِ، فَدَخَلُوا فِي هَذِهِ الْحَالِ السَّارَّةِ، وَزَالَ عَنْهُمُ النَّصَبُ وَنَكَدُ الْمَعِيشَةِ، وَحَصَلَ السُّرُورُ وَالْبَهْجَةُ.

الثَّانِي: أَمَرَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ أَنْ يَتَبَوَّآ لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾.

الثَّالِثُ: وَصَفَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَرْضَ مِصْرَ بِالْخَيْرَاتِ. قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ قَالَ: كَانَتِ الْجِنَانُ بِحَافَّتَيْ هَذَا النِّيلِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فِي الشِّقَّيْنِ جَمِيعًا، مَا بَيْنَ أَسْوَانَ إِلَى رَشِيدٍ، وَكَانَ لَهُ تِسْعَةُ خُلُجٍ: خَلِيجُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَخَلِيجُ دِمْيَاطَ، وَخَلِيجُ سَرْدُوسَ، وَخَلِيجُ مَنْفٍ، وَخَلِيجُ الْفَيُّومِ، وَخَلِيجُ الْمَنْهَى، مُتَّصِلَةٌ لَا

يَنْقَطِعُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، وَزُرُوعٌ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ كُلُّهُ مِنْ أَوَّلِ مِصْرَ إِلَى آخِرِ مَا يَبْلُغُهُ الْمَاءُ، وَكَانَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ تُرْوَى مِنْ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، لِمَا قَدَّرُوا وَدَبَّرُوا مِنْ قَنَاطِرِهَا وَجُسُورِهَا وَخُلُجِهَا. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أَيْ: عَيْشَةٍ كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا، فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا، وَيَلْبَسُونَ مَا أَحَبُّوا، مَعَ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهَاتِ، وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ، فَسُلِبُوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَارَقُوا الدُّنْيَا، وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، وَتِلْكَ الْحَوَاصِلِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَالْمَمَالِكِ الْقِبْطِيَّةِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾. وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ.

الرَّابِعُ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ مِصْرَ؛ لِأَنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: وَأَمَّا الذِّمَّةُ فَهِيَ الْحُرْمَةُ وَالْحَقُّ، وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الذِّمَامِ. وَأَمَّا الرَّحِمُ فَلِكَوْنِ هَاجَرَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ.

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ فِي «مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوْصَى عِنْدَ وَفَاتِهِ، فَقَالَ: «اللهَ اللهَ فِي قِبْطِ مِصْرَ، فَإِنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُ لَكُمْ عِدَّةً، وَأَعْوَانًا فِي سَبِيلِ اللهِ».

الْخَامِسُ: فِي أَرْضِ مِصْرَ يَجْرِي نَهْرُ النِّيلِ الَّذِي يَنْبُعُ مِنَ الْجَنَّةِ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ» مَا مُخْتَصَرُهُ: سَيْحَانُ: هُوَ نَهْرُ الْمَصِّيصَةِ، وَجَيْحَانُ: هُوَ

نَهْرُ أَذَنَةَ، وَالْفُرَاتُ: هُوَ نَهْرٌ فَاصِلٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ، وَالنِّيلُ: هُوَ نَهْرُ مِصْرَ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَهَا مَادَّةٌ مِنَ الْجَنَّةِ.

السَّادِسُ: فِي مِصْرَ الْوَادِي الْمُقَدَّسُ طُوَى. الَّذِي كَلَّمَ اللهُ فِيهِ نَبِيَّهُ مُوسَى عليه السلام أَثْنَاءَ خُرُوجِهِ مِنْ مَدْيَنَ عَائِدًا إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ مَعَهُ أَهْلُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

السَّابِعُ: فِي مِصْرَ جَبَلُ الطُّورِ الَّذِي أَقْسَمَ اللهُ ﷻ بِهِ فِي كِتَابِهِ. فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى.

﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾ يَعْنِي: مَكَّةَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْحَسَنُ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ. وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: هَذِهِ مَحَالُّ ثَلَاثَةٌ، بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ، فَالْأَوَّلُ: مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، الَّتِي بَعَثَ اللهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، **وَالثَّانِي: طُورُ سِينِينَ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ**، وَالثَّالِثُ: مَكَّةُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

الثَّامِنُ: مِصْرُ هِيَ الْمُبَوَّأُ الصِّدْقُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ «جَامِعِ الْبَيَانِ»: عَنِ الضَّحَّاكِ: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾. قَالَ: مَنَازِلَ صِدْقٍ: مِصْرُ وَالشَّامُ.

التَّاسِعُ: بَارَكَ اللهُ تَعَالَى مِصْرَ بِالْمَاءِ وَالْأَشْجَارِ، وَالثِّمَارِ وَالْخِصْبِ وَالسَّعَةِ. قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»: يَعْنِي مِصْرَ وَالشَّامَ. ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾. بِالْمَاءِ وَالْأَشْجَارِ، وَالثِّمَارِ وَالْخِصْبِ وَالسَّعَةِ.

الْعَاشِرُ: مِصْرُ بَلَدُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام. فَقَدْ كَانَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، وَيَعْقُوبُ، وَيُوسُفُ، وَوُلِدَ بِهَا مُوسَى، وَهَارُونُ، وَيُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَالْأَسْبَاطُ، وَغَيْرُهُمْ عليهم السلام.

الْحَادِي عَشَرَ: دَخَلَ مِصْرَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ. مِنْهُمُ: الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَفَتَحَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنهم، وَعَاشَ فِيهَا جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ، مِنْهُمُ: اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، وَالْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، وَالْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ، وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ، وَالشَّاطِبِيُّ، وَغَيْرُهُمْ رَحِمَهُمُ اللهُ.

عِبَادَ اللهِ: تَأَمَّلُوا مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله فِي «فَتَاوِيهِ»: لَوِ اسْتَوْلَى هَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُحَادُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُعَادُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى أَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، لَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى زَوَالِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَدُرُوسِ شَرَائِعِهِ. أَمَّا الطَّائِفَةُ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَنَحْوِهِمَا فَهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُقَاتِلُونَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ دُخُولًا فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ، الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ عَنْهُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» ... تَدْخُلُ مَعَ التَّتَارِ فَيَصِيرُونَ حِزْبًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ. فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الَّتِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ كَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَعِزُّهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ، وَذُلُّهُمْ ذُلُّ الْإِسْلَامِ. فَلَوِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ التَّتَارُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ عِزٌّ وَلَا كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ، وَلَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ يَخَافُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ تُقَاتِلُ مِنْهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَأَمَّلُوا مَصْدَرَ عِزِّكُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَحِيدُوا عَنْهُ، فَتَنْقَلِبَ الْعِزَّةُ ذُلًّا، فَسُنَنُ اللهِ الْكَوْنِيَّةُ لَا تُحَابِي أَحَدًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾، وَقَالَ عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾. أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ، وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ، فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْكَ، وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَّهْ، لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ.